

علم الاجتماع اللغوي وجغرافية اللغة

د. فتيحة عويقب

جامعة معسكر

تعد اللغة إحدى محاور الدراسات اللغوية القديمة والحديثة، ولا سيما اللسانية منها، ذلك أن هذه الأخيرة سواء كانت عامية أو فصحي، أو حتى لهجة تستحق الدراسة لأنها دليل على إثبات الهوية الوطنية، وهي نقطة التقاء الشعوب وتواصلها.

اللغة وسيلة للتواصل:

إن اللغة أداة تواصل الشعوب وراقيها، فباللغة يتمكن الإنسان من التواصل مع غيره، فهي توجد حيثما كان هناك أناس يعيشون في مجتمع، و"لا توجد لغة مستعملة دون أن تكون وسيلة تواصل"¹. ولأن الاهتمام قديما كان يخص بالدراسة اللغة المكتوبة دون سواها جاءت اللسانيات لتهتم باللغة المنطوقة، لذلك فإن موضوعها "هو الدراسة العلمية للغات"². ومن هنا فإن أول مهمة للسانيات، تتمثل في وصف كل وقائع اللغة، التي يمكن ملاحظتها ولا يمكن تأسيس علم اللسان، إلا بالاعتماد على معطيات ناتجة عن ملاحظة متنوعة، شاملة ودقيقة قدر الإمكان لأشكال اللسان المعروفة.³ وعليه فإن اللسانيات، اهتمت في دراستها بمحور التواصل بين الناس، ألا وهو اللغة مصدر التفاهم والاشتراك بين مختلف الشعوب.

من اهتمامات علم اللغة التطبيقي علم الاجتماع اللغوي:

لعلم اللغة فروع، يهتم كل فرع منه بدراسة اللغة البشرية من زاوية خاصة، كعلم اللغة النفسي، علم اللغة التاريخي، علم اللغة التربوي... ونجد بالإضافة إلى هذه الفروع، علم اللغة الاجتماعي، إذ من اهتماماته أنه يدرس الأصول والخصائص الجوهرية التي تربط ما بين اللغات جميعها، حيث إن وظيفة اللغة تتمحور في تلك النظم الصوتية الاختيارية، التي تستعمل عند جماعة لغوية، كما أنه يبحث في اللغات القديمة والحديثة ولهجاتها من حيث الزمنية والمكانية، ويجري مقارنات وتقابلات من أجل معرفة الحقائق اللغوية.⁴

وبالإضافة إلى ما سبق ذكره، يهتم علم اللسان الاجتماعي بالبحث عن الأسباب الموضوعية للأخطاء الواردة في الخطاب سواء كانت شفوية أو كتابية وتصحيحها، وكذا ربطها بالواقع الاجتماعي، وتحديد التداخلات اللغوية، ووصف الحالات المرضية التي تصيب اللغة نتيجة عوامل معينة. ويمكن تصنيف هذا النوع من البحوث في مجال اهتمامات علم

اللهجات واللسانيات الجغرافية، باعتبارهما من أخصب المواضيع التي تدخل في إطار علم اللسانيات الاجتماعية.⁵

فعلم الاجتماع اللغوي، يندرج ضمن علم اللغة التطبيقي، ومن أوجه نشاط هذا الأخير جغرافية اللهجات، وكذا ما يعرف بالأطالس اللغوية، وهو إنجاز يعمل على تحديد الظواهر الأساسية في الاختلاف اللهجي، والتنوع اللغوي، وتسجيل النماذج الأدبية والفلكلورية، وقياس مدى انتشار الظواهر المختلفة، ودرجة أصحابها من الحضارة والبداءة والثقافة، وهذا الجانب يهتم خاصة بالمناطق ذات التعدد اللغوي، أو المناطق التي لها الخصوصيات اللغوية.⁶

كما تهتم اللسانيات الاجتماعية باعتبارها فرع تطبيقي بمشاكل التخطيط اللغوي في مجتمع من المجتمعات لا تتوفر فيه الوحدة اللغوية، وهكذا نجد بعض اللسانيين قد استطاعوا أن يضعوا للبلدان المختلفة لغة موحدة اعتبرت لغتها الرسمية، انطلاقاً من فحص لهجات مختلفة يتكلمها سكان مناطق متعددة، بحيث لم تكن بها وحدة لغوية تساعدها على التنمية.⁷

والعمل على التوزيع الجغرافي للغة، ليس من اختصاص الجغرافيين فقط، وإنما هو اختصاص عالم الاجتماع كذلك، فكلاهما يهتم بوصف اللغات. فمن الأعمال التي يقوم بها جغرافيو اللغة، هو حصر كيفية الأداء بحسب التوزيع الجغرافي لأصحاب هذه الكيفيات، والنظر في كثرة ورود بعضها، وقلة البعض الآخر، ثم وضع خرائط خاصة بالنطق كخريطة خاصة بانتشار التراكيب.⁸

فالاهتمام بالتوزيع الجغرافي للغة، اهتمام لساني قديم حتى أن دي سوسير ركز على العوامل الجغرافية، داعياً إلى الاهتمام بالصلة بين اللغة والجغرافية، حتى ظهر اختصاص لساني جديد هو اللسانيات الجغرافية (Linguistique géographique).⁹

وقد أكد علماء اللهجات على أساس الارتباط بين لهجات المتحدثين في المجتمعات المحلية، وبين معالم البيئة الجغرافية، وتباعد المسافات بين تلك المجتمعات المحلية، والطبقة الاجتماعية، والعمر، والسلالة والنوع وغيرها من العوامل الأخرى التي تعكسها اللهجات المختلفة داخل المجتمع الواحد.¹⁰

وانطلاقاً من هذا الأساس، عرفت وتعرف اللغة العربية مثلها مثل كل اللغات التنوع اللهجي، حيث يمكننا اليوم أن نوزع هذه اللهجات توزيعاً جغرافياً وفق عدد البلدان العربية، ولكن داخل كل بلد تتوزع هذه اللهجات إلى لهجات حضرية خاصة بالمدن ولهجات ريفية أو

قروية تمثل استعمالات اللغة العربية المختلفة، التي يمكن للباحث ملاحظتها ودراستها عبر الوطن العربي¹¹. فالمكتبة العربية تزخر إلى جانب المكتبة الغربية بالدراسات اللهجية، فهي تمثل مجالا خاصا يعرف بعلم اللهجات (Dialectologie).

التنوع اللهجي:

التنوع اللهجي خاص بجماعة من الناطقين قليلة الأفراد أو كثيرة، إذ تؤدي هذه الجماعة صوتا من الأصوات اللغوية بطريقتها الخاصة، غالبا ما ترجع أسباب هذا التنوع إلى عوامل اجتماعية وتاريخية، ومن أمثلة التنوع اللهجي نذكر ما يلي:

1. توزيع التآديات الخاصة بصوت القاف "ق" في الرقعة الناطقة باللغة العربية، إذ نجد أن الحواضر الكبرى المتحضرة تنفرد بنطقها القاف همزة، وهي من الغرب إلى الشرق من الوطن العربي: فاس وتلمسان وبيروت فدمشق.¹² أما النطق بالقاف المجهورة أي "ث" فنجدها في البوادي والأرياف، ويبقى النطق بالقاف مهموسة في المناطق الأخرى حواضر وقرى كثيرة.

2. و في الجزائر وبالضبط في الأغواط وضواحيها، نجد أهلها يقلبون الغين قافا، فيقولون مثلا: "القنم" بدلا من "الغنم" فهم لا يخلطون بين القاف الأصلية، وهذه بل يقلبون القاف الأصلية قافا وذلك كله راجع من اتقاء الوقوع في اللبس ولأن النظام اللغوي مبني دائما على التقابل والاختلاف والتباين.

3. الفروق من الناحية الصوتية بين مفهوم "الجيم"، والكيفيات اللامتناهية التي نجدها في الاستعمال الحقيقي، أي أن كل فرد ينطق "جيم" خاصة به. وهذه الفروق لا نجدها في مستوى الجماعة الواحدة فحسب، بل تتعدى ذلك مثلا: جيم الجزائر وجيم المغرب وجيم تونس، نجد بينها اختلافات، وكذلك الجيم في المغرب العربي والجيم في المشرق العرب، والجيم التي نطق بها العرب الأولون، تختلف عن الجيم التي نطق بها اليوم فهناك (الجيم، الدجيم، الـثيم ...) ¹³.

التواصل اللغوي من خلال اللهجة، العامية واللغة الفصحى :

إن الحديث عن جغرافية اللغة، وإمكانية دراسة التنوع اللغوي من مكان إلى آخر، يستدعي منا الوقوف عند بعض المفاهيم التي تتعلق بهذه المسألة ألا وهي اللهجة، العامية واللغة الفصحى. فمصطلح اللهجة (dialect) يشير إلى الاختلاف في أنواع اللهجات التي تختلف في المفردات والقواعد وكذلك النطق (pronunciation).¹⁴ فاللهجة مستوى أدنى

من الفصحى، وتمتاز عادة بوجود الاختلاس والخفة، ويلتجأ إليها في مواقف الأنس، ولا تظهر الفوارق بينها وبين الفصحى، وتارة تكون مفهومة من قبل كثير من الأفراد¹⁵.

و من الأمثلة الدالة على أن اللهجة مستوى من مستويات الفصحى، تلك التي نجدها في القراءات ومنها: تسكين أواخر الكلمات، الاختصار، تفخيم الحروف، الإشمام... الخ. فبمرور الزمن اتسع نطاق هذه اللغة وكثر فيها المعرب والدخيل، وأدى ذلك إلى حصول التباين بين اللهجة واللغة الفصحى، فكان سببا في الشرح الحاصل بين المستويين، ذلك أن اللهجة تتميز بالعضوية والاختزال، وعدم التعقيد. وهذا ما جعل أولي الأمر يتخرجون من اللهجات كونها تطغى على العربية الفصيحة، وخاصة في الاستعمال العادي، لأنها أكثر سهولة من الفصيحة التي تميل إلى الانقباض¹⁶.

ومع هذا ينبغي ترقية اللهجات، وتفصيح الكثير من ألفاظها، باعتبارها المستوى الثاني من مستويات اللغة الفصحى، إذ تأتي اللهجات ضرورية في مواقف الاسترسال ويحتاجها المتكلم¹⁷، بل هي رافد لغوي هام، ذلك لأنها سريعة التغير والتطور، وبفضل ذلك تمد الفصحى بمجموعة من المصطلحات التي تعمل على رقيها. و ما يسمى باللهجات، يمكن أن يكمن في الإنتاجات الصوتية نفسها، التي قد تكون بطبيعة الحال في الألسن من نفس الأصوات، وتكون الفروق بين لسان ولسان آخر في اختيار تلك الأصوات وتجميعها في كل كلمة¹⁸.

وبخصوص سيادة لهجة على بقية اللهجات في مكان ما، فمرد ذلك إلى أن المنطقة الأكثر إبداعا، والأكثر ثقافة من جاراتها، ستتمكن في يوم من الأيام من فرض سيطرتها السياسية والثقافية¹⁹. وستصبح لهجتها اللسان الرسمي أو الأدبي طالما امتدت هيمنتها، ذلك أن كل لهجة تلعب دور طبيعي للناطقين بها في سرعة توصيل المعاني والدلالات، والتعبير المناسب في أمور حياتهم ومثل هذه الوظائف التي تمارسها اللهجات لكل طبقة تساعد على تعزيز وضع لهجة كل فئة بين اللهجات الأخرى في المجتمع²⁰.

أما العامية فهي مستوى بعيد عن اللهجة أو الفصحى، نظرا لوجود الهجين اللغوي فيها، وما يلحق بذلك من احتكاكات جديدة تؤدي تارة إلى التعمية وتنزل أحيانا إلى لغة السوق، وتختلف اختلافا بينا بين منطقة وأخرى من نفس القرية، ولا تفهم خارج المنطقة اللغوية التي تحاكيها²¹.

واللغة الفصحى- بطبيعة الحال- تختلف عن اللهجة وعن العامية، ذلك لأنها تتميز بالكلفة والإعراب.²² كما أنها المجهود الذي يجب أن تتوجه إليه جهود اللغويين، لخلق توازنات لسانية تعمل على توجيه نظر إلى وسائل الهوية، في الوقت الذي تنصهر الأمم في مجموعات متكاملة بغية إثبات الوجود، ويتحقق ذلك عند البحث في هذه اللغات، والاعتناء بها وجعلها وافية بمطالب متكلميها. و ستكون اللغة الفصحى (الرسمية) رافدا من الروافد العلمية للغة العربية.²³ و عليه ورغم هذا الاختلاف بين المفاهيم الثلاث: اللغة الفصحى، اللهجة والعامية إلا أنه حيث تكون صلة التقارب أشد بين لسان مشترك ذي استعمال محدود، وبين بعض العاميات، فإن المتكلمين عامة يكونون أكثر وعيا بوحدة الكل دون التباين بينها، وإنهم يميلون إلى اعتبار المشترك والعامية كأسلوبين لنفس اللسان وليس عرفين متميزين.²⁴

ويبقى التنوع اللهجي، ليس نتيجة حتمية للامتداد الجغرافي، فالمسافة ليست في حد ذاتها هي التي تنتج التفريق اللساني، ولكنه فتور الاتصالات²⁵. فإذا عوض تزايد المسافات بتحسين الاتصالات فستظل السلوكات اللسانية كما هي. وبهذا المفهوم تبقى اللسانيات علم يهتم باللهجات ولا تفضل الفصحى على غيرها فاللهجات على اختلافها وتعددتها لا تقل أهمية عن سواها من مستويات الاستخدام اللغوي²⁶.

نخلص مما سبق، أن كل من المصطلحات الثلاث التي تم التطرق إليها سابقا (اللغة الفصحى، العامية واللهجة)، لها دور في تحقيق التواصل اللغوي وإيصال المعنى، وهذا ما جعل اللسانيات تهتم بدراسة اللهجات ودراسة اللغة البشرية بصفة عامة في إطار علمي وموضوعي.

الهوامش:

- 1- اللسانيات، جان بيرو، تر: الحواس مسعودي ومفتاح بن عروس، دار الآفاق، الجزائر 2001، المقدمة.
- 2- المرجع نفسه، ص 4.
- 3- المرجع نفسه، ص 7.
- 4- دروس في اللسانيات التطبيقية، صالح بلعيد، دار هوم، الجزائر، ط3، 2000 ص 18-19.
- 5- عبد السلام المسدي، اللسانيات من خلال النصوص، الدار التونسية للنشر، دط، 1986، ص 172.
- 6- دروس في اللسانيات التطبيقية، صالح بلعيد، ص 13.

- 7- عبد السلام المسدي، اللسانيات من خلال النصوص، ص172.
- 8- مفاهيم في علم اللسان، التواتي بن التواتي، دار الوعي، الجزائر، ط2، 2008، ص 41-42.
- 9- في علم اللغة العام: شاهين عبد الصبور، جامعة حلب، 1982، ص 18- 20.
- 10- علم الاجتماع اللغوي السيد علي شتا، مركز الإسكندرية للكتاب، الإسكندرية، 1998، ص179.
- 11- مبادئ في اللسانيات، خولة طالب الابراهيم، دار القصبه للنشر، الجزائر، ط2، 2006، ص 180.
- 12- زكية رحموني، مقال بعنوان: "بعض الملاحظات حول النطق بالقاف والفاء في إحدى لهجات الجزائر"، مجلة اللسانيات، ع1، المجلد الأول.
- 13- مفاهيم في علم اللسان، التواتي بن التواتي، ص 91.
- 14- علم الاجتماع اللغوي، السيد علي شتا، ص181.
- 15- دروس في اللسانيات التطبيقية صالح بلعيد، ، ص 16.
- 16- فقه اللغة العربية، صالح بلعيد، ، دار هومه، الجزائر، 1998، ص 29.
- 17- المرجع نفسه، ص 100.
- 18- مبادئ في اللسانيات العامة، أندري مارتيني تر: سعدي زبير، دار الآفاق، الجزائر، 1999، ص 15.
- 19- المرجع نفسه، ص 137.
- 20- علم الاجتماع اللغوي، السيد علي شتا، ص187.
- 21- دروس في اللسانيات التطبيقية صالح بلعيد، ص 16.
- 22- فقه اللغة العربية صالح بلعيد، ص 29.
- 23- المرجع نفسه، ص 100.
- 24- مبادئ في اللسانيات، أندري مارتيني، ص 136.
- 25- المرجع نفسه، ص 137.
26. مبادئ اللسانيات أحمد محمد قدور، دار الفكر، دمشق، ط2، 1999، ص 11.